المجلد الثامن والعشرون للعام ٢٠٢٤م
حولية كلية اللغة العربية للبنين بجرجا

عينية سويد بن أبي كاهل

شرح عبد اللّه الطيب دراسة في نقد النقد

Ainiyat Suwaid bin Abi Kahil Explanation
Al-Abdullah Al-Tayeb, A studying in the criticism of criticism

بقلم الدكتور

ياسر جلال شعبان محمد

أستاذ الأدب والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بأسيوط
جامعة الأزهر - مصر

الترقيم الدولي/ ISSN: 2356 - 9050

العدد الثاني من إصدار ديسمبر ٢٠٢٤م
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٢٤/٦٩٤٠م

عينية سويد بن أبي كاهل شرح عبدالله الطيب
دراسة في نقد النقد

ياسر جلال شعبان محمد

قسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط ـ جامعة الأزهر ـ مصر

البريد الإلكتروني: AboAmar369@yahoo.com

الملخص

إن الحديث عن الشعر العربي، ودراسته يكشف عن تراث لا يزال بكراً، وكنز دفين يستدعي من أبناء العربية أن ينفضوا عنه غبار النسيان ، أوالتناسي .

ومن جملة الاستدعاء أن نعيد قراءة هذا الشعر مرة تلو أخرى، ومراجعة ما كتب حوله متابعة أو مراجعة.

من أجل ذلك كانت هذه الدراسة التي تتناول قصيدة سويد بن أبي كاهل، والتي تسمى "العينية" بشرح د. عبدالله الطيب، والوقوف على ما جاء من آراء في شرحه للقصيدة، وبيان رأي المعارضين من خلال أدلة كل فريق، وتحليل ذلك في دراسة تقوم على نقد النقد الذي يُعَد نشاطاً معرفيًّا، وممارسة نقدية تعتمد القراءة التأويلية.

إن جمالية الأدب لا تكمن في أحادية الإبداع فقط، بل في تعدد الطرح حوله، وسؤالات النقد.

الكلمات المفتاحية: القصيدة العينية، نقد النقد، سويد بن أبي كاهل، اختلاف الرواية، المعجم الشعري، الطيف والخيال.

Ainiyat Suwaid bin Abi Kahil Explanation Al-Abdullah Al-Tayeb ,A studying in the criticism of criticism

Yasser Jalal Shaaban Muhammad
Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language, Assiut, Al-Azhar University, Egypt .
Email: AboAmar369@yahoo.com

Abstract

Talking about Arabic poetry and studying it reveals a legacy that is still virgin, and a buried treasure that calls upon the sons of Arabic to shake off the dust of oblivion, or neglect.

Among the calls for it is to reread this poetry again and again, and review what Books about it follow up or review.

For this reason, this study was conducted, which deals with the poem of Suwaid bin Abi Kahil, which is called "Al-Ainiya" with the explanation of Dr. Abdullah Al-Tayeb, and to examine what he saw in his explanation of the poem, and to clarify the opinion of the opponents through the evidence of each team, and to analyze that in a study based on criticism of criticism, which is a cognitive activity, and a critical practice that depends on interpretive reading.

The beauty of literature does not lie in the singularity of creativity only, but in the multiplicity of approaches to it

And criticism questions.

Keywords: The poem "Ainiya" - Criticism of criticism - Suwaid bin Abi Kahil - Differences in narration - Poetic dictionary - Spectre and imagination.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد النبي الخاتم الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ..

فإن الحديث عن الشعر العربي، ودراسته حديث ماتع – لا سيما في عصوره الأول – فالغوص فيه يكشف عن تراث لا يزال بكراً، وكنز دفين يستدعي من أبناء العربية أن ينفضوا عنه غبار النسيان حيناً، والتناسي عنه حيناً آخر.

ومن جملة الاستدعاء أن نعيد قراءة هذا الشعر مرة تلو أخرى، ومراجعة ما كتب حوله إفادة أو إضاءة، متابعة أو مراجعة، وهذا كله لا ينتقص حق أساتذة تعلمنا على أيديهم، أو من خلال مؤلفاتهم.

من أجل ذلك كانت هذه الدراسة التي تتناول قصيدة سويد بن أبي كاهل، والتي تسمى "العينية" بشرح د. عبدالله الطيب، والوقوف على ما جاء من آراء في شرحه للقصيدة، وتحليل ذلك في دراسة تقوم على نقد النقد الذي يُعَد نشاطاً معرفيًّا، وممارسة نقدية تعتمد القراءة التأويلية.

إن جمالية الأدب لا تكمن في أحادية الإبداع فقط، بل في تعدد الطرح حوله، وسؤالات النقد.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي، والسيمائي، والتاريخي، ومنهج التفكيك الذي يَعُد نقد النقد خاصية من خصائصه عن طريق ما يعرف بـ النقد الشارح Meta criticism مع اختلافي في مقصودهم من المصطلح، وسعي التفكيك الدائم نحو انتفاء القصدية، وموت المؤلف، ولا نهائية المعنى.

الدراسات السابقة:

– تجليات الشعرية في ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري في ضوء التداولية، آلاء عمر مصلح الزعبي – رسالة ماجستير – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة آل البيت – الأردن ٢٠٢٣م.

حيث عقدت الدراسة مبحثاً عن القصيدة اليتيمة من خلال وقفة نقدية تعرضت لإشكالية زمن القصيدة بوصفه سببا رئيسًا في اختلاف النقاد حولها، بيد أن الدراسة جاءت أقرب ما يكون إلى الدراسة البلوجرافيا في صورة وصفية متسارعة الأنفاس، إذ لم يتجاوز الحديث – مثلا– عن دراسة طه حسين للقصيدة في بحثها السطر ونصف السطر.

وتنوعت الدراسة بين بيانية ونحوية، وهذا الأمر لا يعد من خصائص الدراسة الحالية.

خطة البحث:

جاءت الدراسة في مقدمة، ومدخل ، ومبحثين، وخاتمة.

المقدمة: وفيها الحديث عن أسباب اختيار الموضوع، ومنهج الدراسة والدراسات السابقة، وخطة البحث.

المدخل: شاعر وقصيدة

أولا: سويد بن أبي كامل.. نسبه، رتبته، شعره

ثانياً: القصيدة العينية .. مصادرها، منزلتها

المبحث الأول: العينية بين المؤيدين والمعارضين

أولا: آراء عبد الله الطيب في شرحه للعينية:

أ– القصيدة كاملة وليست قصيدتين

ب – تقسيم القصيدة

ج– تعدد أسماء المحبوبة ورمزيتها

ثانيا: الفريق المعارض:

" كارلوس يعقوب ليال – شوقي ضيف– البهبيتي – العاشور – الزركلـــي – طه حسين"

المبحث الثاني: بناء القصيدة دلالات وتأويلات.

أ– مطلع القصيدة

ب– المعجم الشعري:

١– الأخلاق والقيم الإسلامية.

٢– المفردة والتراكيب الشعرية.

٣– زمن القصيدة.

ج– اختلاف الرواية وتعدد القراءة.

د– المحنة وتجربة السجن.

هـــ– الطيف والخيال.

و– أشكال الصراع.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

مدخل .. شاعر وقصيدة

قبل أن تدلف الدراسة إلى موضوعها الرئيس، يحسن بها أن تذكر نتفاً من حياة الشاعر سويد بن أبي كاهل، من حيث نسبه، رتبته، وكذلك الحديث عن قصيدته العينية التي لاقت قبولاً واستحساناً.

أولا: سويد بن أبي كاهل

– **نسبه:** سويد بين أبي كاهل بن حارثة بن حِسل بن مالك بن عبد سعد بن عدي بن جُشَم ابن ذبيان بن كنانة بن يشكر اليشكري، ويقال: الوائلي، ويقال الغطفاني(١).

– **كنيته:** أبو سعد(٢)، وقد جاء هذا في شعره حين قال مفتخراً: [الرجز]

أنا أبو سَعْدٍ إذا اللَّيْلُ دَجـا

دَخَلت في سِرْبالِهِ ثُمَّ النَّجا (٣)

ونسبه من جهة أمه أنها كانت من بني غُبَر، تزوجها أبو كاهل وكانت حينذاك حاملا بسويد فلما ولدت الحقه أبو كاهل به، أو تزوجها أبو كاهل وكان" سويد" غلاما، وعلى أية حال فالنتيجة واحدة للروايتين، إذ تم إلحاقه بأبي كاهل.

---

(١) ينظر: ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي– دار الجيل– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ، ٢٧١/٣.

ـــ وكذا ينظر: شاكر العاشور: ديوان سويد بن أبي كاهل، دار الطباعة الحديثة– بصرة – عراق، ط أولى ١٩٧٢ م، ص ٥.

(٢) الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: د. إحسان عباس، وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، دار صادر – بيروت ، ط ثالثة ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م، ٦٩/١٣.

(٣) البيت في ديوانه مفرداً، تحقيق: العاشور، ص ١٧، وينظر: وينظر: الأغاني ٦٩/١٣، وكذا: الإصابة ٢٧١/٣، وروي في ضرائر الشعر [خال في سواده يرندجا] ينظر: ابن عصفور: أبو الحسن علي بن مؤمن ، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط أولى ١٩٨٠م، ص٦٦.

ومن ثم نرى سويداً ينسب نفسه إلى بني يشكر الذين يتفرع منهم بنو غُبر(١)، فيقول مفتخرا: [الطويل]

وَمِنّا يَزِيدُ إِذَا تَحَدَّى جُمُوعَكُم

فَلَمْ تَقْرَبُوهُ الْمَرْزَبَان الْمُسَوَّر(٢)

وتارة أخرى ينسب نفسه إلى بني ذبيان فيقول مُصَرِّحاً بهذا النسب: [الطويل]

أَنا الغَطَفَانِيُّ زَيْنُ ذُبْيَانَ فَابْعِدُوا

فَاللزِّنْج أَدْنَى مِنْكُم وَيحَابِرُ(٣).

وهنا يفخر الشاعر بانتمائه إلى قيس مثلما فخر من قبل بانتمائه إلى بني يشكر.

رتبته: عَدَّه ابن سلام في الطبقة السادسة من فحول الجاهلية، فجمعه مع ثلاثة من شعراء المعلقات: عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، وهي منزلة عالية، ومكانة سامقة لـ سويد بن كاهل. يقول ابن سلام: "وله قصيدة أولها: بسطت رابعة الحبل لنا ....، وله شعر كثير، ولكن بَرَّزت هذه على شعره"(٤).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما الذي حَمَل ابن سلام على ضمه في طبقة شعراؤها من أصحاب المعلقات وهو ليس كذلك؟!

---

(١) بنو غبر: على وزن فعل مثل: زفر، بطن من بني يشكر، ونسبهم بنو غبر بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر من بكر بن وائل.

ـ ينظر: المبرد: نسب عدنان وقحطان، تحقيق: عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – الهند، ١٣٥٤هـ – ١٩٣٦م، ص١٧.

ـ وينظر: ابن دريد: الاشتقاق، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ط أولى ١٤١١هـ/١٩٩١م، ٣٤١/٢.

(٢) البيت في ديوانه ص ٢٠ تح: العاشور.

(٣) البيت في ديوانه ص ١٨.

(٤) طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة، ١٥٣/١.

والجواب: أن بعض النقاد عَدّ سويداً من أصحاب الواحدة وهي العينية، فكأن الواحدة – هنا – في المصطلح قامت مقام المعلقة، ويؤيد ما ذهبتُ إليه قول ابن سلام نفسه في مقدمة الطبقة السادسة حيث يقول: "أربعة رهطٍ لكل واحد منهم واحدة"(١).

ووافق هذا الرأي ما جاء عن الأصمعي في مجلس الرشيد(٢) حين عَدَّه من أصحاب الواحدة مع ستة شعراء آخرين نصفهم من أصحاب المعلقات، وذكر "طرفة، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم".

والمعلوم سلفاً أن الشاعر عُمّر طويلاً حتى أنه جمع بين ثلاثة عصور: جاهلي، وإسلامي، وأموي. وهذه المدة الزمنية التي عاشها لا تتناسب مع نتاجه الأدبي، وما وصل إلينا من شعره، وقد يرجع هذا إلى عدة أسباب، قد يقوم كل سبب منها بحجية هذا الأمر والاكتفاء به دون سواه، ومنها:

١- عدم رواية شعره وحفظه، ومن ثَمَّ ضاع كثير منه، وهذه الكثرة يؤيدها ابن سلام في طبقاته.

٢- قد ينطبق عليه ما تعارف عن بعض شعراء الصدر الإسلامي من انشغالهم بالقرآن عن الشعر.

٣- أن طول العهد قد أصابه بالملل، فزهد في قول الشعر، وترك الإنشاء فيه، لا سيما إن وضعنا نصب أعيننا أن الشاعر ذاع صيته في غرض الهجاء، وهذا مما لا فخر فيه.

---

(١) المرجع السابق ١٥١/١.

(٢) ينظر: الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن: حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق: د. جعفر الكتاني، وزارة الثقافة والإعلام – العراق – دار الرشيد للنشر ١٩٧٩م، ١٧٣/١.

ثانياً: قصيدة سويد "العينية"

– القصيدة من البحر الرمل : فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

الرويّ حرف العين، وبه سميت القصيدة العينية، والقافية مقيدة.

– مصادرها:

وردت القصيدة العينية في المفضليات(١)، بينما خلت منها الأصمعيات، وقد ذكرها التبريزي في شرحه اختيارات المفضل(٢)، وكذا ابن الأنباري أوردها في شرحه للمفضليات(٣)، وكذا في ديوانه الذي اعتنى بجمعه شاكر العاشور(٤)،

وفي الأشباه والنظائر زِيدَ بيت ليس في المفضليات:

كَمْ مُسِرٍّ لِيَ حِقْدًا قَلْبُهُ

فَإِذَا قَابَلَهُ شَخْصِي رَكَعَ(٥)

ومن جملة القول فإن عبدالله الطيب في شرحه للعينية قد اعتمد نسخة المفضليات بشرح الأنباري مشفوعاً بتحقيق المستشرق البريطاني "كارلوس يعقوب ليال".

---

(١) ينظر: المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، ط دار المعارف – الطبعة السادسة، رقم ٤٠ ، ص١٩٠.

(٢) التبريزي: شرح اختيارات المفضل، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، رقم ٣٩، ٨٦٧/٢، مع اختلاف في الأبيات بين تقديم وتأخير عما جاء في شرح ابن الأنباري.

(٣) ديوان المفضليات شرح ابن الأنباري، عناية: كارلوس يعقوب لايل، مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت ١٩٢٠م، ص٣٨١.

(٤) ديوان سويد بن أبي كاهل، تحقيق: شاكر العاشور، ص٢٢.

(٥) ينظر: الخالديان: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٦٥م.

منزلتها:

يذكر صاحب الأغاني أن الأصمعي سمع قصيدة سويد بن أبي كاهل "بسطت رابعة الحبل لنا" ففضلها " وقال: كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعدها من حكمها، ثم قال الأصمعي: حدثني عيسى بن عمر أنها كنت في الجاهلية تُسمى: اليتيمة"(١).

فضلاً عن تسميتها الواحدة، والمفردة، وفي هذا يقول صاحب المنثور والمنظوم " ومن القصائد المفردات عندي في الإحسان قصيدة سويد بن أبي كاهل التي يقول فيها:

نَشَطَتْ رابِعَةُ الحَبْلِ لَنا

فَوَصَلْنا الحَبْلَ مِنْها ما اتَّسَع "(٢)

لكن ما الذي أفردها؟! بل ما الذي جعل النقاد يصفونها تارة بالواحدة، وتارة أخرى باليتيمة؟

وهنا أنقل كلاماً عن الحسن بن علي الحرمازي(٣) يذكر فيه سبب تفرد مثل هذه القصائد فيقول: "وللعرب أربع قصائد جُمع فيهن النسيب والصفات والمواعظ، والأمثال والفخر، وليس يجتمع هذا في قصيدة جاهلية غيرهن".(٤)

---

(١) الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، ٦٩/١٣.

(٢) ابن طيفور: المنثور والمنظوم .. القصائد المفردات التي لا مثل لها، تحقيق: د. محسن غيَّاض، تراث عويدات – بيروت باريس، طبعة أولى ١٩٧٧م، ص ٣٧..

(٣) هو أبو علي الحسن بن علي الحِرْمازي، مولى بني هاشم، نزل البصرة في بني الحرماز فنسب إليهم، أخذ عن أبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، والأصمعي، وكان شاعراً وراوية.

ــ ينظر: ابن النديم: الفهرست، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص٧٦، وينظر: أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر – الفجالة – القاهرة، ص٧٥.

(٤) ابن طيفور: المنثور والمنظوم، ص٤٠.

وذكر ثالثة الأربعة عينية سويد بن أبي كاهل، وكأن شمولية القصيدة العربية – لدى القدامى – عامل أساس في حسنها وتقدمها؛ لمَا حوته من فنون وأغـراض متعددة.

كيف لا وقد أشاد بها النقاد استحساناً، ووصفاً، واستشهاداً بأبياتها، إما لحكمة، وإما لفخر، وقد ذكر المؤرخون استشهاد الحجاج بن يوسف الثقفي بأبيـات منهـا، فتمثل يوم " رُسْتَقُبَاذ "[1] بعد أن صعد المنبر بأبيات من قصيدة العينية لسويد:

كَيفَ يَرجونَ سِقاطي بَعدَما

جَلَّل الرَأس بَياضٌ وَصَلَع

رُبَّ مَن أَنضَجتُ غَيظاً صدره

قَد تَمَنّى لِيَ مَوتاً لَم يُطَع

وهذا الاستشهاد على خلاف ما ورد في المفضليات من حيث ترتيب الأبيات، وتغيير بعض الكلمات.

ومن عجب أن المتأمل في الأبيات موضع الشاهد يرى الشاعر – مـن دون قصد – وكأنه قد خص بهذه الأبيات الحجاج بن يوسف، لما لها من معان، ودلالات تتعلق بشخصية الحجاج من جانب، وبصراعاته من جانب آخر.

(١) رُسْتَقُبَاذ: موضع بين الكوفة والبصرة وهي من أرض دستوا. ينظر: ابـن قتيبـة: الشـعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف ٤٢١/١. وينظر: الحميري: محمد بن عبدالمنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق/ إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت – طبع على مطابع دار السراج– الطبعـة الثانيـة – ١٩٨٠ م،ص ٢٧٢، وينظـر: ياقوت الرومي، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي:معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيـروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م، ٣/ ٤٣

ـــ والقصة أوردها ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ط دار الفكر، ٢٠٨٧/٥.

المبحث الأول : العينية بين المؤيدين والمعارضين

تقديم:

تقوم فكرة المبحث على عرض الآراء المبثوثة في ثنايا شرح عينية سويد للدكتور/ عبدالله الطيب، والتي تتمثل في ترجيحه كون القصيدة واحدة، وليست قصيدتين، وأنها إسلامية من خلال الحقل الدلالي، وكون الأسماء مع تعددها تدور بين الرمزية والوصفية، رمزية المرأة / القبيلة، ووصفية الاسم، فالمحبوبة تدعى "سلمى" أما "رابعة" فوصف لها.

مع بيان رأي المعارضين، وسوق أدلتهم فيما ذهبوا إليه من أمثال طه حسين والبهبيتي.

أولاً: آراء عبدالله الطيب في شرحه للعينية:

(أ) القصيدة كاملة وليست قصيدتين:

يرى عبدالله الطيب " أن قصيدة "سويد بن أبي كاهل" قصيدة واحدة، ويتضح هذا الرأي من خلال ثلاثة نصوص من شرحه للقصيدة:

١- حديثه عن المستشرق "كارلوس يعقوب ليال" حين قال: "زعم المستشرق الكبير كارلوس يعقوب ليال في مقدمة ترجمته لهذه القصيدة أنها قصيدتان معاً من وزن واحد، وقافية واحدة، تبدأ من البيت الأول إلى البيت الرابع والأربعين، والثانية تبدأ من البيت الخامس والأربعين إلى آخر القصيدة"(١).

٢- تأملَ عبدالله الطيب القصيدة فرآها قصيدة مكتملة حيث يقول: "القصيدة بلا ريب كُلٌّ واحد، متماسكة جداً، ليس فيها فجوات أو اضطراب"(٢).

٣- يعجب "الطيب" من رواية الأصمعي الذي قال: إن العرب كانت تسميها في الجاهلية "اليتيمة"(٣)، ووجه الاعتراض والعجب لدى "عبد الله الطيب" كلمة

---

(١) ينظر: عبدالله الطيب: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل "بسطت رابعة الحبل لنا"، [د، ن، ت]، ص١٢.

(٢) المرجع السابق ص١٢.

(٣) الرواية أوردها الأصفهاني في الأغاني، ٦٩/١٣.

"الجاهلية"؛ لأنه يراها إسلامية الأسلوب من بدايتها إلى نهايتها، ولم يذكر فيها "سويد ابن أبي كاهل" شيئاً من مآثر الجاهلية التي حرمها الإسلام مثل الخمر والميسر(١).

وكون القصيدة إسلامية – لدى عبدالله الطيب – لا تخرج عن فرضيتين:

أولاهما: أنها نظمت بعد إسلامه.

ثانيتهما: أنها نظمت قبل إسلامه، بيد أنه سمع شيئاً من القرآن الكريم فتأثر ببيانه، وبلاغته وألفاظه.

ب- تقسيم القصيدة:

ذكر د. عبدالله الطيب أن عينية سويد بن أبي كاهل تتكون من اثنى عشر فصلاً(٢) تستغرق الأبيات من ١ : ٤٤ أربعة فصول من مجموع الفصول الاثني عشر، وذلك بداية من قول الشاعر:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبلَ منها ما اتسع

إلى قوله:

صالحو أكفائهم خُلانهم وَسَراةُ الأصل والناسُ تبع

هذه الفصول الأربعة تناولت غرض النسيب ووصف المحبوبة وبيان مودتها، وحسن حديثها، وجمال طلعتها، مما يوحي بكمال خلقتها، وهذا الغرض امتد في أبيات القصيدة حتى البيت التاسع عشر، مستغرقاً فصلين من الفصول الأربعة حسبما جاء في تقسيم "الطيب".

أما غرض الوصف فشمل الحديث عن الصحراء، وحَرِّها، والسير فيها، والحديث عن الخيل والسفر أو الرحلة للوصول إلى قومه ديار بني بكر.

ثم يأتي الفصل الرابع متمماً أغراض الفصول الأربعة للحديث عن قبيلته ومدحهم حين يقول: مِنْ بَني بَكْرٍ بِها مَمْلَكَةٌ

مَنْظَرٌ فيهم وفيهم مُسْتَمَع

(١) ينظر: عبدالله الطيب، شرح قصيدة "سويد"، ص١٢.

(٢) ينظر: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص١٣.

والشاعر في هذه الأبيات الممتدة من البيت الثلاثين [٣٠] إلى البيت الرابع والأربعين [٤٤] يفخر بقبيلته معدداً صفات المجد، وثبات القلب، والبعد عن قول الفحش، يثخنون عدوهم في الحرب، ويحملون من الأمر ما تنوء به أولو القوة من القبائل الأخرى.

ثم جاء الفصل الخامس ليشمل الأبيات من[٤٥ : ٥٠] بقوله:

أَرَّقَ العَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدَعْ

مِنْ سُلَيْمَى فَفُؤادِي مُنْتَزَعُ

وهي أبيات من النسيب يذكر فيها الشاعر الطيف والخيال، وبما أن الدكتور عبدالله الطيب يؤيد فكرة أن القصيدة واحدة كاملة، فنجده يعلل عودة الشاعر إلى النسيب بعد ما يقترب من منتصف القصيدة بأن هذا العود من باب تحريك النفس والسامع، وهذا نص ما قاله الطيب: "وبعد مدحه القبيلة الكبرى يندفع اندفاعة جديدة يجيء أولاً فيها بشيء من النسيب يحرك به نفسه وسامعيه"(١).

بيد أن هذا التعليل فيه نظر من ناحيتين:

- النسيب
- التصريع

وسوف أفصل القول فيهما في المبحث الثاني.

وعودٌ على فصول القصيدة – مثلما يرى الطيب – فإنها تدور حول الرحلة، ووصف الناقة أو الجمل بالثور، ثم الحديث عن الفخر بالقبيلة، وذكر العدو الحاسد ووصفه، وأنه لا يخشاه؛ لأنه مثل الصخرة الملساء التي لا يزلزلها شيء، ولا يتغلب عليها أحد، وفي هذا الجو من حديثه عن عدوه إنما يفخر بنفسه من خلال نفي الغلبة، وعجز عدوه عن الانتصار عليه، ومع تتابع أشكال الصراع يدوّن مساجلة بينه وبين عدوه، ليختم الجزء باستفهام يحمل تشبيهه بالأسد الذي ينتجع مكاناً جديداً.

(١) ينظر: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص ٣٧.

ج- تعدد أسماء المحبوبة ورمزيتها:

قد تعددت أسماء المحبوبة في العينية، فوردت أسماء "رابعة – سلمى – سليمى"، ويذهب عبدالله الطيب إلى أن الشاعر "قد يسمي محبوبته بأكثر من اسم واحد"(١) فتكون "رابعة" هي عين "سلمى"، وتكون "سليمى" تصغيراً لـ"سلمى" ، بل إن عبدالله الطيب جَوَّز أن تكون الأسماء الواردة واقعة بين الوصفية والاسمية، وفي هذا يقول: "ويجوز أن رابعة وصف لها، أي: هي رابعة علينا أي عاطفة علينا"(٢).

واقتصار المعنى على [العطف] تحجيم وتضييق؛ لأن الكلمة في أصل دلالتها تعني: الكف، والتمهل، والاستواء، والفتل في تركيب "ربع الحبل" أي فتله.

هذا وقد وردت الأسماء في الأبيات [١ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٤٥]

ومما ذهب إليه د. عبدالله الطيب أن اسم المحبوبة رمز للقبيلة(٣)، حيث أشار إلى هذا في أكثر من موضع تارة بالقطع، وأخرى بالزعم، مثل قوله [ولذلك زعمنا].

ثانياً: الفريق المعارض:

تقديم:

المعلوم سلفاً أن د. "عبدالله الطيب" يرى في العينية أنها قصيدة واحدة متكاملة(٤)، وكون القصيدة واحدة أو اثنتين لم يشغل النقاد القدامى، وإنما دارت حواراتهم حول كونها جاهلية أو إسلامية، وأنها كانت تسمى بـ اليتيمة، أو الواحدة، فاليتيمة لقب في الجاهلية، والواحدة لقب في الإسلام، حيث عَدَّوا شعراء الواحدة في العصر الجاهلي، ومثلهم في صدر الإسلام، فـ "اتفقوا على أن أشعر الشعراء

(١) ينظر: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص ١٣.

(٢) ينظر: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص ١٣.

(٣) ينظر: السابق، ص ١٨، ٢٦، ٣١.

(٤) ينظر: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص ١٢.

واحدة في الجاهلية: طرفة، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم ... ونظيرهم في الإسلام سويد بن أبي كاهل"[١].

ومما ذهب مذهب عبدالله الطيب في كون العينية قصيدة واحدة د. فتحي عبدالمحسن حمدان، إذ يقول: "وأرى أن القصيدة برمتها جاهلية، ولا ينقض جاهليتها هذه الأبيات الثلاث أو الأربع التي تشتمل على ألفاظ ومعان إسلامية"[٢].

فاشتمالهاعلى ألفاظ ومعان إسلامية ليس دليلاً على إسلاميتها، فضلاً عن أن بعض شعراء الجاهلية ذكروا قيماً في أشعارهم توافقت وتعاليم الشرع.

ويستنبط من كلامه عن جاهلية القصيدة العينية أنها واحدة، قيلت في زمن واحد.

بينما يذهب الفريق الثاني إلى أن قصيدة سويد قصيدتان، ويمثل هذا الفريق مجموعة من النقاد المحققين والمستشرقين منهم:

- كارلوس يعقوب ليال.
- طه حسين.
- شوقي ضيف.
- البهبيتي.
- الزركلي.
- شاكر العاشور.
- موسى بن مصطفى العبيدان.

---

(١) ينظر: السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر: شرح شواهد المغني، علق حواشيه أحمد ظافر كوجان، تعليقات الشيخ محمد محمود ابن التلاميد الشنقيطي، لجنة التراث العربي، ط ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ص٢٤٣.

(٢) ينظر: قراءة في عينية سويد بن أبي كاهل، مجلة كلية التربية – جامعة عين شمس، مج١٦، عدد ٣ ، سنة ٢٠١٠م، ص٤٥.

وسوف تفسح الدراسة مساحة لعرض آرائهم، وما يستنبط من أقوالهم في إقامة الحجة على أن القصيدة العينية قصيدتان.

كارلوس يعقوب ليال: يرى أن العينية قصيدتان من بحر واحد، وقافية واحدة، وهذا الرأي نسبه إليه عبدالله الطيب[١] أثناء شرحه للقصيدة، لكني لم أقف عليه في المفضليات.

شوقي ضيف: ورأيه مستنبط من فحوى كلامه عن العينية، فيذكر أن "سويد ابن أبي كاهل" في قصيدته "يفخر فخراً جديداً، لا عهد لنا به من قبل، فخراً إسلامياً يذكر فيه ربّه وما أنعم عليهم من نعم"[٢].

نجيب محمد البهبيتي:

وقد عَدّ العينية قصيدتين[٣] إحداهما قيلت في الجاهلية، وأخراهما في الإسلام.

شاكر العاشور:

وهو المحقق لديوان سويد بن أبي كاهل، ويصرح بأنها قصيدتان، وأن رأي البهبيتي وطه حسين على درجة من الصواب[٤].

الزركلي:

يرى أنها قصيدتان، وهذا القول من فحوى كلامه الذي يذكر فيه أن مطلع القصيدة العينية: "أرق العين خيال لم يدع"[٥]

ولا يخفى على لبيب أن المطلع هذا هو البيت الخامس والأربعون في ترتيب العينية.

---

(١) ينظر: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص ١٢.

(٢) العصر الإسلامي، دار المعارف – الطبعة السابعة، ص٧٠.

(٣) ينظر: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري- الطبعة المغربية – الرباط ١٩٨١م/١٤٠١هـ ، ص٥٠.

(٤) ينظر: ديوان سويد بن أبي كاهل، ص ١١.

(٥) ينظر: الأعلام ١٤٦/٣.

طه حسين:

من أبرز النقاد الذين تكلموا عن العينية، وصرحوا بأنها ليست قصيدة واحدة، فيذكر فيما نصه قائلاً: " وأحسب أن هذه القصيدة ليست قصيدة واحدة، وإنما تألف من قصيدتين، قيلت أولاهما في الجاهلية، وقيلت أخراهما في الإسلام"(١).

والحقيقة أن طه حسين لم يسق من الأدلة المباشرة ما تعين على هذا القول، بيد أن المتأمل في كلامه حين أخذ في تحليل القصيدة يستنبط الآتي:

أولاً: وَسْمُه للجزء الأول من القصيدة بألفاظ مثل السذاجة – البداوة – البعد عن التكلف، فيقول: "سذاجة الشاعر وبداوته – بعده عن تكلف المترفين – وتستطرفه لسذاجة وجمال لفظه – ولكني أحب سذاجة الشاعر في تصويره، وهدوئه، وبعده عن التكلف في عرضه.

هذا الوسم ينتهي عند البيت الرابع والأربعين من القصيدة والذي يمثل نهاية القصيدة الأولى عند الفريق المؤيد بأن القصيدة قصيدتان.

ثم يستأنف "طه حسين" وصفه للجزء الثاني من القصيدة بعبارات وألفاظ مثل "الغزل الجميل الهادي – الجزل – الرصين"، فضلاً عن طريقة العرض في أبيات الخصومة بينه وبين عدوه، هذا العرض الذي يمثل صورة من صور الحجاج، التي تظهر الخصم منهزماً، عاجزاً قد أعيته الحجة.

وهكذا اختلف الوصف عند " طه حسين" في الجزءين؛ ليتقوى بذلك الزعم بأن أول القصيدة جاهلية قد ناسبتها أوصاف البداوة والسذاجة وعدم التكلف، بينما كان الجزء الثاني من القصيدة إسلامياً ناسبه الوصف الجزل والرصين ، وطريقة الحجاج التي تولدت عن الحضارة.

ثانياً: حضور الألفاظ الإسلامية، والتأثر بالقرآن الكريم في الجزء الثاني من العينية، وسيتضح هذا خلال دراسة المعجم الشعري.

---

(١) ينظر: طه حسين، حديث الأربعاء، طبعة دار المعارف – الطبعة الرابعة عشرة، ١٦٢/١.

المبحث الثاني : بناء القصيدة دلالات وتأويلات

مقدمة:

يناقش رأي د. عبدالله الطيب المؤيد لكونها قصيدة واحدة متكاملة، وذلك من خلال عدة نقاط تتكئ عليها هذه الدراسة، وتدلل على أن القصيدة قصيدتان، وهذه النقاط تتمثل في مطلع القصيدة، والتصريع، والمعجم الشعري، ورمزية الأسماء، واختلاف الرواية، والمحنة والسجن، والطيف والخيال، وأشكال الصراع.

أ- مطلع القصيدة:

يحوي مطلع القصيدة النسيب، وتعدد أسماء المحبوبة " رابعة – سلمى – سليمى"، والصراع ، فالمطلع الأول:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبلَ منها ما اتسع

موضوع غزلي عن "رابعة".

والمطلع الثاني: أَرَّقَ العَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدِعْ مِنْ سُلَيْمَى فَفُؤَادِي مُنْتَزَعُ

موضوع عن خيال سليمى، وحبها المؤرق، والعالق بنياط القلب.

وقد ذكر "خير الدين الزركلي" حين ترجم لـ"سويد بن أبي كاهل" أن العينية مطلعها: "أرق العين خيال لم يدع"، وهذا المطلع في ترتيب القصيدة هو الخامس والأربعون مثلما ورد في مصادر الأدب.

يقول الزركلي: " أشهر شعره عينية كانت تسمى في الجاهلية اليتيمة، وهي من أطول القصائد، حفظ الرواة منها نيفاً ومئة بيت، مطلعها: أرق العين خيال لم يدع من سليمى ففؤادي منتزع"(١).

ونحن أمام نص مخالف لما جاء في المصادر الأدبية – فيما أعلم – وتفسير ذلك لا يخرج عن احتمالين اثنين:

(١) ينظر: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، مايو ٢٠٠٢م، ١٤٦/٣.

الأول: أن العينية حدث فيها تقديم وتأخير، سواء أكان ذلك في المطلع أم في وسط القصيدة.

الثاني: أن العينية قصيدتان مطلع الأولى منهما: بسطت رابعة الحبل لنا، ومطلع الأخرى: أرق العين خيال لم يدع.

ومما يستفاد من نص الزركلي – أيضاً – تحديد زمن القصيدة، إذ هو من التابعين لآراء القدامى في أن القصيدة جاهلية، بيد أن الشاهد – هنا – يتمثل في المطلع الذي ذكرته آنفاً.

وتحديد زمن القصيدة قد يكون عاملاً مرجحاً لرأي أحد الفريقين، لا سيما عند دراسة المعجم الشعري، بيد أن واحداً من المؤيدين –للقول إن القصيدة قصيدتان– صَرَّح بكونها قصيدتين من دون اعتناء بتحديد زمنها، فيقول: "وأراني ميالاً إلى أن عينية سويد قصيدتان – من غير تحديد زمنهما – جمع الرواة بينهما لاتحادهما وزناً ، وقافية، وشعوراً"(١).

والسبب الذي جعله ينحو هذا المنحى في تأييد القصيدتين يتمثل فيما يأتي:

١– تعدد أسماء المحبوبة "رابعة – سلمى".

٢– الحديث عن الخيال في موضعين مختلفين، الأول في الأبيات "٨، ٩، ١٠"، ثم الموضع الثاني في الأبيات "٤٥، ٤٦، ٤٧".

٣– التصريع في البيت الخامس والأربعين.

٤– القصيدة الأولى افتخر بالقبيلة، والثانية افتخر بنفسه، وكل قصيدة منهما يتقدمها نسيب.

وأمَّا تعدد أسماء النساء في القصيدة فله محفزان: الأول منهما الشيب، وثانيهما: الخيال، وقد حازهما سويد بن أبي كاهل، إذ عُمِّر دهراً، وصقلته التجارب، فرهف حسه، واتسع خياله، فالشيب يسهم في تعدد الأسماء من خلال

(١) موسى بن مصطفى العبيدان: شاعر وقصيدة، مجلة أفنان، عدد ٨، ص ٩٨ وما بعدها.

التذكر، أو الاسترجاع للتجارب التي مضى زمانها، وكأن الاسترجاع – هنا – معادل موضوعي للحرمان الذي أسهم فيه الشيب تارة، والبعد والفراق تارة أخرى.

ثم يأتي الخيال مبرزاً الشعور بالغربة والقلق والارتحال، فالطيف لا يزور صاحبه إلا على البعد، وحصول الفرقة المكانية، وهذا من دواعي الإلحاح على ذكر الخيال واستدعائه.

ومن دلائل أن القصيدة قصيدتان مناسبة ذكر الخيال في المطلع الثاني "أرق العين خيال لم يدع" بختام القصيدة، الذي دلّ على الرحيل، وانتجاع مكان آخر:

هَلْ سُوَيْدٌ غَيْرُ لَيْثٍ خادِرٍ ثَئِدَتْ أَرْضٌ مِنْهُ فَانْتَجَعُ

وقد أحسن الشاعر في اختيار لفظ [أرق] خلافاً لقول بعضهم [ألمّ خيال] [تطالعنا خيالات] لأن الأرق نفار للنوم ليلاً، وإنما تظهر علاماته في العين دون سواها.

وبوجه عام فإن الدراسة حين تحاول مقابلة الأسماء الواردة في القصيدة للمحبوبة بمعناها المعجمي لا تجزم بذلك، وإنما هذا وجه من وجوهٍ عدة محتملة قد تعين على الفهم والمغزى من استخدام هذه الأسماء الصريحة وتعددها مثل: رابعة، سلمى، فقد يكون تعددها على الحقيقة لشخصيات عرفها الشاعر وتعايش معها، وقد ترجع رمزيتها لمعناها المعجمي، أو كما يرى د. "عبدالله الطيب" أنها رمز للقبيلة، فضلاً عن أن وجوهاً أخرى محتملة لتعددها مثل: التعمية والإخفاء هروباً من ذكر الأسماء الحقيقية، أو أن الرمزية عائدة إلى موضوع ومضمون القصيدة.

وأيّا ما تدعو إليه تعددية الأسماء فإن ما ذهب إليه د. عبدالله الطيب مغاير لما دلّ عليه السياق من وجهين:

الأول: أن في القصيدة وصفاً حسيًّا للمحبوبة يجعلنا نقطع أن الأسماء الواردة للمحبوبة ليست رمزاً للقبيلة، إذ استغرق الوصف ستة أبيات بعد البيت الأول تناول [الثغر – تفليج الأسنان – لون الشفة – الاستياك – شجر الأراك]، فضلاً عن الوصف الخُلقي بأنها [حُرة].

الثاني: أن في القصيدة حديثاً صريحاً عن القبيلة وأمجادها والفخر بها، فلا حاجة لنا أو له تدعوه إلى الرمز.

ومما يرتبط بالمطلع ارتباطاً وثيقاً، وعرفاً شائعاً التصريع أو ما يعرف بـ "نعت القوافي" من حيث كونها عذبة الحرف، سلسة المخرج؛ ولذلك فإن "الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه"(١).

ويبين "قدامة بن جعفر" أو يتبع كلامه السابق بأن التصريع قد يصيب أبياتاً أخر من القصيدة غير البيت الأول قائلاً: "وربما صرعوا أبياتاً أخر من القصيدة بعد البيت الأول"(٢)، ولا يخفى على فَطِن أن الإتيان بـ "رب" دليل على التقليل، وأن الأمر ليس مطرداً.

ولم يك قدامة بن جعفر بدعاً فيما ذهب إليه من كون التصريع قد يصيب غير البيت الأول، فها هو ذا "ابن رشيق" يذكر كلاماً يتوافق مع كلام "قدامة" حتى يكاد يطابقه لفظاً، فيقول: "وربما صرّع الشاعر في غير الابتداء"(٣).

وما ذكره القدامى كان دافعاً قوياً لدى د. عبدالله الطيب من الأخذ برأي وحدوية القصيدة العينية، ودلل على ذلك بأمرين:

الأول: أن التصريع الواقع في البيت الخامس والأربعين إنما هو من عادة الشعراء "والشعراء يفعلون هذا عندما يبدأون فصلاً جديداً في القصيدة، أو يأخذون في بيان معنى جديد"(٤).

---

(١) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان، ص٨٦.

(٢) المرجع السابق ص٨٦.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل – بيروت لبنان – ط خامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ١/١٧٤.

(٤) شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص ٣٨.

وهذا القول هو فحوى كلام ابن رشيق أخذه عبدالله الطيب بصياغة أخرى، إذ قال ابن رشيق في معرض حديثه عن التصريع حين يأتي في غير الابتداء: "وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر"(١).

الثاني: أن عبدالله الطيب يرى في العودة إلى تكرار ذكر الطيف في البيت الخامس والأربعين من باب تجديد النشاط، وإيقاظ الهمم، وأن "سويد بن أبي كاهل" عاد إلى "معنى الطيف والذكرى ليجدد نشاط نفسه إلى الاندفاع إلى البيان والتعبير"(٢).

وأكثر النقاد والمؤلفين في علمي العروض والقوافي حين تعرضوا للتصريع إنما لبيان المصطلح، من دون اشتراط وجوده في أول القصيدة، أو تكراره واستئنافه في بعض أبياتها.

وقد وجدت من المحدثين من يرى أن التصريع في أول القصيدة فقط(٣).

ومما سبق ذكره أستطيع سرد الأدلة التي تقوي مذهب القائلين بأن العينية قصيدتان لا قصيدة واحدة:

١- أن التصريع تكمن مهمته في أول القصيدة ابتداءً، وهذا القول يستنبط من فائدة التصريع، "وفائدته في الشعر أنه يفهم منه قبل كمال البيت الأول من القصيدة قافيتها"(٤)، وكأن التصريع جيء به لسبب نوعي وتقسيمي؛ لبيان أحد الفروق بين الشعر والنثر، وما يؤيد هذا القول ما جاء عن ابن رشيق في سبب الإتيان بالتصريع ابتداء إنما هو "مبادرة الشاعر القافية؛ ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون

---

(١) العمدة ، مرجع سابق ١/١٧٤.

(٢) شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل، ص ٣٩.

(٣) ينظر: محمد حسن عثمان: المرشد الوافي في العروض والقوافي ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ، ص٤٤.

(٤) ابن الأثير، ضياء الدين: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: د. مصطفى جواد، و د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي- ١٩٥٦م/١٣٥٧هـ، ص٢٥٤.

غير منثور، ولذلك وقع في أول الشعر"[١]، وبذا يترجح الرأي بأن التصريع في البيت الخامس والأربعين هو بداية لقصيدة أخرى؛ وذلك لأن التصريع – من وجهة نظر خاصة – يقوم بوظيفة استشرافية للإفهام والبيان، ولا يحسن هذا الإفهام في الوسط والحشو.

٢- كون التصريع في وسط القصيدة بسبب الانتقال من غرض إلى آخر مثلما ذهب إلى ذلك د. عبدالله الطيب، فإن هذا الكلام له ما يقويه من الشواهد الشعرية كما ورد في معلقة امرئ القيس: [الطويل]

أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا اِنجَلي

بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ[٢]

لكن ما فات د. عبدالله الطيب هو الغرض والموضوع؛ لأن الشاعر امرأ القيس حين جاء بالتصريع انتقل إلى وصف الليل، ومطلع القصيدة كان طلليًّا، فلا ضير في ذلك حين ينتقل إلى قصة وصف الليل، أو وصف الفرس، وما شاكل ذلك، لكنه لم يكرر المطلع الطللي بحجة تنشيط النفس واستدعاء الذكرى.

وهذا ما لم ينطبق على عينية "سويد بن أبي كاهل"؛ إذ كان المطلع غزلياً يتحدث فيه عن رابعة، ثم يأتي في البيت الخامس والأربعين بالتصريع لا لينتقل إلى موضوع جديد، وقصة أخرى، بل ليكرر المطلع الغزلي ويتحدث عن طيف سليمى، وهذا ما لم يُعْهَد.

ومن ثَمَّ فإن المطلع الثاني المصرع يعد بداية لقصيدة ثانية حملت كل خصائص القصيدة العربية، وبنية القصيدة الجاهلية من غزل، وفخر، ووصف، ومساجلة بينه وبين خصمه.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١/١٧٤.

(٢) ديوان امرئ القيس، شرح حسن السندوبي، دار إحياء العلوم – بيروت – ط أولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٧٣.

وما الدافع الذي دعا الشاعر " سويد بن أبي كاهل" أن يعيد مقدمة وغرضاً بعد أن استوفى في الأبيات الأولى من البيت الأول حتى البيت الرابع والأربعين كل أغراض القصيدة من غزل، ووصف للرحلة والراحلة، ثم الفخر بالقبيلة؟!

٣- بالنظر إلى عدد أبيات القصيدة نجدها تجاوزت المائة وثمانية أبيات أو تسعة، وهذا العدد لم يُعْهَد فيما نُقل إلينا من قصائد بما في ذلك بعض المعلقات باستثناء معلقات طرفة، وعنترة، وعمرو بن كلثوم، وهي معلقات تجاوزت المائة. وهذا النفس الطويل يحيلنا إلى كون القصيدة قصيدتين تبدأ الثانية من البيت الخامس والأربعين:

أرق العين خيال لم يَدِع

وأخيراً فإنني أميل إلى القول بأن التصريع يكون في أول القصيدة، كما أن وجوده في وسط القصيدة ليس دليلاً على أن العينية قصيدة واحدة، ولا من باب تنشيط ذهن المتلقي، فوظيفته أتمها في مبتدأ القصيدة، وما يمكن أن يقوم به في وسط القصيدة أو في الحشو قد تكفلت به القافية،أو أنه جاء عفو الخاطر.

وأما الجرس الموسيقي النابع من التصريع فلدينا من الوسائط الفنية، والإيقاعية ما يقوم بهذا الدور مثل: الجناس، والطباق، والتكرار وغير ذلك.

ب – المعجم الشعري:

يسير الشاعر على عادة العرب في مقدماتهم الشعرية الغزلية سواء أكان ذلك في مطلع قصيدته أم أكان في الجزء الثاني من قصيدته، وهو المطلع الذي يبدأ من البيت الخامس والأربعين، "أرق العين خيال لم يدع".

والغزل ليس مقصوداً لذاته أو لمعناه الحرفي، وذلك لأن العرب ترى في العشق أنه مرادف للنحول، والحتف والهلكة، والقطيعة، والبعد والمخاطرة، ومن لم يكن كذلك "نَسَبوه إلى فساد الطبع، ونقصان اللب، وبُعد الفهم، وموت القلب"[١] من

(١) أبو الطيب الوشاء: محمد بن إسحاق، الموشَّى أو الظرف والظرفاء، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي – مصر، الطبعة الثانية ١٩٥٣م، ص٦٥.

أجل ذلك كانت المقدمات الغزلية – بغض الطرف عن موضوع القصيدة – جزءاً من البناء الفني للقصيدة العربية بوجه عام، ومنهجاً لا يتخلف مهما تداولته الأعصر.

وَمن ثم فإن المقدمات لا تعين على تحديد الفكرة التي تسعى إليها الدراسة، بل هي مقدمات حيادية. وسوف يحوي المعجم الشعري ثلاثة محاور هي:

١- الأخلاق والقيم الإسلامية.

٢- المفردة والتراكيب الشعرية.

٣- زمان القصيدة.

١- الأخلاق والقيم الإسلامية:

إن المتأمل في الجزء الأول من القصيدة العينية يجد أن الفخر الذي وصف به الشاعر قبيلته فخر معتاد بمواصفات تواضع عليها القوم، وجعلوها محور حديثهم من صفات الكرم، والشجاعة، وتجنب الفحش، والغدر، رجاحة العقل، واستغرق هذا الفخر القبلي خمسة عشر بيتاً بدءاً من البيت الثلاثين في جملة ألفاظ منها:

[بسط الأيدي – ليس من أخلاقهم عاجل الفحش – عُرُف للحق – لا يخاف الغدر من جاورهم – مساميح – حاسرو الأنفس عن سوء الطمع – وزن الأحلام – صادقو البأس – ليوث تتقى عُرَّتُها]

فإذا ما جئنا للجزء الثاني من العينية والذي يبدأ من البيت الخامس والأربعين نجد فخراً إسلامياً لا قبلياً، وأن ما كان من أخلاق إنما هي من عند الله، لم تأت بالدربة والممارسة

كتبَ الرَّحْمَنُ والحَمْدُ لِلَّهِ

سَعَةُ الأَخْلاقِ فِينا والضِّلَعُ

فسعة الأخلاق من جملة النعم التي أنعم الله بها علينا، والتي تأبى الدنية، وتسعى لبناء المعالي، فإنما الفضل منه وإليه، بيده الرفع والخفض.

وهذه الأبيات تبدأ من البيت الحادي والستين من العينية في جملة ألفاظ منها:

[كتب الرحمن والحمد له – سعة الأخلاق – إباء للدنيات – بناءً للمعالي – يرفع الله ومن شاء وضع – نِعم لله فينا – صنيع الله]

وهذا مما يعضد القول: إن القصيدة قصيدتان سادت في الجزء الثاني من العينية روح إسلامية، ومعان شرعية وعقدية بالرغم من الاتفاق العام في مصطلح الأخلاق بين الجاهلية والإسلامية إلا أن اختلاف المقاصد واضح بين عقيدة العصرين الجاهلي والإسلامي.

ومن معالم التأثر وسيادة المفهوم الإسلامي للقيم الواردة في الجزء الثاني من العينية:

أ- عدم الاستعانة بشيطان الشعر:

فإن المركوز في الطباع، والعالق في الأذهان أن الشعراء لهم أصحاب من الجن يوحون إليهم الشعر، بيد أن شاعرنا في القصيدة يرفض هذا الأمر

وَأَتاني صاحِبٌ ذو غَيّثٍ
زَفيانٌ عِندَ إِنفادِ القُرَع[1]
قالَ: لَبَّيكَ وَما اِستَصرَختُهُ
حاقِراً لِلنّاسِ قَوّالَ القَذَع

والرفض هنا يتمثل في صورتين:

الأولى: أن الاستعانة بشيطان الشعر عادة مألوفة، وشاعرنا يريد بيان قدرته من دون أن يُنسب النصر إلى غيره، بالرغم من أن خصمه وحاسده قد استعان بذلك الشيطان، أما سويد فقد أبى، واستطاع التغلب على خصمه وقهره ، وفي ذلك يقول:

ففَرَّ مِنّي هارِباً شيطانُهُ
حَيثُ لا يُعطي وَلا شَيئاً مَنَعْ[2]

(١) ديوان سويد، تحقيق: العاشور، ص ٣٥.

(٢) السابق ، ص ٣٤.

لأن لديّ من ثبات العزم، وصدق المقام، ولسان قاطع ما يجعلني في غنـــاء عن الاستعانة بأحد.

الثانية: أن الشيطان لديه طريقة واحدة في نصرة صاحبه ألا وهـــي الكـــلام القبيح، والقول السيء، وهذا الأمر يتنافى وتعاليم الإسلام، وحميد الأخـــلاق، وقـــد صرح سويد بقوله: " حاقِراً لِلنّاسِ قَوّالَ القَذَع"، وما سبق – أيضاً – يعضد الـــرأي بإسلامية الجزء الثاني من العينية، ومن ثَمّ عده قصيدة أخرى.

ب- الحديث عن الخصم:

صورة أخرى من صور التأثر بالمعاني والقيم الإسلامية؛ إذ لم يكتف "سويد ابن أبي كاهل" ببيان النعم، وإظهار الحمد في موضع الشكر والفخر، فأخذ يصـــف خصمه بأوصاف مسترشداً بالآية الكريمة من سورة الحجرات (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُـــكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)(١)

يقول "سويد" واصفاً خصمه:

بِئسَ ما يَجمَعُ أَن يَغتابَني
مَطعَمٌ وَخمٌ وَداءٌ يُدَّرَعْ
لَم يَضِرني غَيرَ أَن يَحسُدَني
فَهوَ يَزقو مِثلَ ما يَزقو الضُوَعْ
وَيُحَيِّيني إِذا لاقَيتُهُ
وَإِذا يَخلو لَهُ لَحمي رَتَعْ(٢)

والشاعر فيما سبق يدور في مضمار التصور الإسلامي، والروح الإســـلامية سواء أكان الفخر بذكر النِّعم أم أكان الحديث عن خصم ألد حاسد، فنراه "يمضـــي فيعرض لخصم دنيء النفس كان يغتابه"(٣).

---

(١) سورة الحجرات، من الآية ١٢.

(٢) ديوان سويد، تحقيق العاشور، ص ٣١.

(٣) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الإســـلامي، دار المعـــارف، الطبعـــة الســـابعة [د.ت]، ص٧٠.

والأبيات السابقة تكمل صورة الاستلهام من التراث الإسلامي، وهذا الاستلهام يتمثل في أمرين:

الأول: الروح الإسلامية المسيطرة في الأبيات من خلال السرد القيمي للمعاني الإسلامية، ثم أتبع ذلك بالاقتباس من الآية الكريمة.

الثاني: وهو أمر مبني على أوله، إذ يعد دليلاً على أن القصيدة قصيدتان، أو أنها قصيدة لم تكتب في زمن واحد، بل في أزمان متعاقبة.

٢- المفردة والتراكيب الشعرية:

القصيدة العينية تحمل من خصائص البناء الفني ما يجعلها تنتمي إلى الحياة الجاهلية، مثلما تحمل من المفردة الشعرية ما يجعلها تنتمي إلى الحياة الإسلامية لا سيما في الجزء الثاني منها. فـ " القصيدة سجل حيٌّ لفحولة الشعر الجاهلي من جهة، وفحولة الشعر الإسلامي من جهة أخرى"(١).

ويعنيني – هنا – السجل الإسلامي الذي حَوَى جملة من الألفاظ والتراكيب تدل دلالة واضحة جلية على انتشار المعجم الإسلامي في الجزء الثاني من القصيدة، والذي يعطي إيحاء بأنه قصيدة أخرى قيلت في العهد الإسلامي، فضلاً عن أن أكثر ما ورد فيها من ألفاظ وتراكيب كانت متشبعة بالنص القرآني، ومن جملة هذه الألفاظ والتراكيب ما يأتي:

- يَرفَعُ اللَهُ وَمَن شاءَ وَضَع

قال تعالى: (يَرْفَعِ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)(٢)

- جُرَعَ المَوتِ وَلِلمَوتِ جُرَع

قال تعالى: (يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ)(٣)

---

(١) د. محمد علي أبو حمدة: في التذوق الجمالي لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري .. دراسة نقدية إبداعية، دار عمار للنشر – عَمَّان – الأردن – ١٩٩٥م، ص٥.

(٢) سورة المجادلة من الآية ١١.

(٣) سورة إبراهيم الآية ١٧.

– وَصَنيعُ اللَهِ وَاللَهُ صَنَع

قال تعالى: (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)(١)

– كَمِهَتْ عَيناهُ حَتّى اِبيَضَّتا

قال تعالى: (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)(٢)

– لا يُريدُ الدَهرَ عَنها حِوَلاً

قال تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا)(٣)

– كَتَبَ الرَحمنُ وَالحَمدُ لَهُ

وفي القرآن ورد بصيغة "كتب الله" " الحمد لله" في مواضع كثيرة منها: (كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)(٤)، (كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)(٥)، ووردت "الحمد لله" في سورة الفاتحة، وأول الأنعام وسبأ وفاطر، وفي ثنايا سور عديدة.

– قَد كَفاني اللَهُ ما في نَفسَهِ

قال تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)(٦)

– بِئسَ ما يَجمَعُ أَن يَغتابَني

مَطعَمٌ وَخمٌ وَداءٌ يُدَّرَعْ

قال تعالى: (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)(٧)

– وَإِذا يَخلو لَهُ لَحمي رَتَع

---

(١) سورة النمل من الآية ٨٨.

(٢) سورة يوسف من الآية ٨٤.

(٣) الكهف آية ١٠٨.

(٤) المائدة آية ٢١.

(٥) التوبة آية ٥١.

(٦) الزمر آية ٣٦.

(٧) الحجرات، آية ١٢.

والآية السابقة تصلح شاهداً على هذا المثال

– ساءَ ما ظَنّوا وَقَد أَبلَيتُهُم

قال تعالى: (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ) (وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ)(١)

مما سبق أستنبط الآتي:

- أن الرأي القائل بأنها قصيدتان تدعمه أدلة وشواهد عديدة تقويه وترجحه.
- أن القول بأنها قصيدة واحدة أكملها الشاعر في صدر الإسلام لا دليل عليه، ومن ثَمَّ فإن الإكمال ما هو إلا قصيدة جديدة حملت كل مقومات القصيدة الإسلامية زماناً، وقيماً، ومعانيَ شرعية.

٣- زمان القصيدة:

وأعني الجزء الثاني من العينية، والظن أنها قيلت في صدر الإسلام؛ لاشتمالها على المعاني والقيم الإسلامية بصورة قصدية، وليست ألفاظاً مفردة جرت على ألسنة الشعراء الجاهليين، ولا تراكيب دعت إليها عبادة الربوبية فقط.

فضلاً عن الجزء الثاني الذي اشتمل على ألفاظ تدل على أنها قيلت في سن متأخرة حيث ذهب الشباب، وزحفت جنود الشيب. وفي هذا يقول سويد:

كَيفَ يَرجونَ سِقاطي بَعدَما

لاحَ في الرَأسِ بَياضٌ وَصَلَع(٢)

وما طرحته من رأي إنما هو من القرائن اللفظية؛ إذ لا يوجد دليل قاطع من كلام القدامى يضع حداً فاصلاً لهذه المسألة.

ج- اختلاف الرواية وتعدد القراءة:

يرى د. عبدالله الطيب أن القصيدة العينية متماسكة ليس فيها فجوات؛ ليدلل على أنها قصيدة واحدة، والمتأمل يجد أن هذا الرأي فيه نظر؛ لاختلاف رواية

(١) الفتح آية ٦ ، ١٢.

(٢) ديوان سويد، تحقيق العاشور، ص٣٢.

القصيدة تقديماً وتأخيراً في أبياتها، أو زيادة وحذفاً، إذ عدّها بعضهم مائة وتسعة أبيات بزيادة بيت عن بقية الروايات وهو:

كَم مُسِرٍّ لِيَ حِقداً قَلبُهُ

فَإِذا قابَلَهُ شَخصي رَكَع[١]

فضلاً عن تغيير كبير وقع في الألفاظ، ثم كانت خاتمة القول بالاختلاف في مطلع العينية عندما عَدّه الزركلي من قول الشاعر:

أَرَّقَ العَينَ خَيالٌ لَم يَدَع

مِن سُلَيمى فَفُؤادي مُنتَزَع

ومن أمثلة التقديم ما جاء في أغلب الروايات قول سويد:

هَل سُوَيدٌ غَيرُ لَيثٍ خادِرٍ

ثَئِدَت أَرضٌ عَليهِ فَانتَجَع

من أنه خاتمة القصيدة، خلافاً لما جاء في شرح التبريزي[٢] إذ كان قبل البيت التاسع والسبعين:

كَيفَ يَرجونَ سِقاطي بَعدَما

لاحَ في الرَأسِ بَياضٌ وَصَلَع

وورد كذلك في حماسة الخالديين بترتيب البيت السابع عشر[٣]، فضلاً عن اختلاف في اللفظ إذ جاء بلفظ:

---

(١) البيت في الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديين، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥م، الجزء الثاني ص١٧٧، ولا يوجد هذا البيت في المفضليات.

ــ والبيت في الحماسة البصرية للبصري علي بن أبي الفرج، تحقيق: عادل سليمان جمال، لجنة إحياء التراث الإسلامي – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ٣٠١/١.

(٢) ينظر: شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزي، ٩٠٧/٢.

(٣) ينظر: الأشباه والنظائر، الجزء الثاني، ص١٧٨.

أجدبت أَرضٌ عَليهِ فَانتَجَع

كما ورد آخر بيت في الحماسة البصرية[١] قول سويد:

ولَساناً صَيرَفيّاً صارِماً

كَحُسامِ السَيفِ ما مَسَّ قَطَع

وهو البيت الثالث بعد المائة في المفضليات.

ويرى د. البهبيتي أن دافعاً وراء هذا الاختلاف وتعدد الرواية، هذا الدافع يخضع لتعدد القراءة بالنسبة للمتلقين فيقول: " وإنما يبقى منها في النفس ما تستبقيه النفس مما هو أوثق اتصالاً بحالتها القائمة بها، وأصدق تعبيراً عنها"[٢].

ومن خلال هذا النص تبرز لنا فرضيتان:

الفرضية الأولى: أن القصيدة يحدث لها انتقاء وانتخاب لبعض أبياتها ، ومن ثَمّ يضيع أو يُهْمل مالا يتصل منها بسبب في نفس المتلقي.

الفرضية الثانية: أن تعدد القراءة بتعدد المتلقين يحدث اختلافاً في الانتخاب، وهذا ما يفسر لنا اختلاف الرواة حول بعض أبيات القصيدة الواحدة، بل وبعض ألفاظها كذلك.

وهذه التعددية قد تصيب القصيدة بالاختلاط مع قصيدة أخرى وافقتها وزناً وقافية، فينتج عن ذلك ما يأتي:

١- أن تدمج قصيدتان لشاعر واحد في قصيدة واحدة؛ نظراً لهذا الاتفاق في البحر والقافية.

٢- أن تنسب القصيدة لأكثر من شاعر، وهذا واضح في ملاحق دواوين الشعراء تحت عنوان [فيما نسب إليه من الشعر] أو ما شاكل هذه العبارة.

وهذا الأمر ليس داخلاً في موضوع الدراسة، خلافاً للأمر الأول الخاص بدمج قصيدتين لشاعر واحد.

---

(١) ينظر: الحماسة البصرية، ٣٠٢/١.

(٢) د. نجيب محمد البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري – ص٤٨.

ومما يذهب مذهب الدليل والبرهان على تقوية الرأي القائل بدمج قصيدتين ما عناه د. البهبيتي قائلاً: "ومن هذا القبيل كثير، وإنما قصدت إلى المثل، فمنه قصيدتان لسويد بن أبي كاهل، قيلت إحداهما في الجاهلية المتأخرة واشتهرت ، فلما أسلم صاحبها عمل أخرى مثلها، فقد عَزّ عليه ألا يقول في إسلامه مثل ما قال في جاهليته، ثم جاء الرواة فخلطوا بين القصيدتين"(١).

وهذا نص صريح في أن عينية سويد بن أبي كاهل كانت – في الأصل – قصيدتين جاهلية وإسلامية، ثم التصريح بذكر السبب الذي دعا الشاعر إلى إنشاء واحدة في الإسلام مثلما أنشأ أختها في الجاهلية؛ تأكيداً لبيان الموهبة، وإظهار القدرة الشاعرية.

د- المحنة وتجربة السجن:

مَرّ سويد بن أبي كاهل بتجربة السجن، وكانت هذه المحنة في العصر الإسلامي في ولاية "عامر بن مسعود الجمحي"(٢) على الكوفة، فحبسه لهجائه قوماً من بني شيبان، ثم أخرجه.

قال الحرمازي عن سويد وكان هَجّاءً: " هاجى الأعرجَ أخا بني حمّال بن يشكر فأخذهما صاحب الصدقة، وذلك في أيام ولاية عامر بن مسعود الجمحي الكوفة فحبسهما، وأمر ألا يخرجا من السجن حتى يؤديا مائة من الإبل، فخاف بنو

(١) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري، ص ٥٠.

(٢) هو عامر بن مسعود بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح، ذكر أبو نعيم الأصبهاني أنه مختلف في صحبته، وقال أبو زرعة: من التابعين، واقره ابن الزبير على الكوفة، وذكر ذلك الذهبي في حوادث سنة أربع وستين للهجرة. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام- المكتبة التوفيقية[د.ت]

ـ ينظر: أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط أولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٢٠٦٥/٤.

ـ وينظر: أبو زرعة ولي الدين أحمد: تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل، تحقيق: عبدالله نوارة، مكتبة الرشد الرياض، ص١٦٥.

حمّال على صاحبهم ففكوه، وبقي سويد فخذله بنو عبد سعد وهم قومه"[1]، ولم يزل كذلك في محبسه حتى افتدته عبس وذبيان؛ لصنيع قَدّمه سويد لهم إذ مدحهم.

- ولكن ما علاقة القصة بمشروع الدراسة؟ وهل هي خادمة لمشكلة البحث؟

الحقيقة أن القصة لها تعلق من ناحيتين:

الأولى: أن الجزء الثاني من العينية يحمل ملامح الصراع بين الشاعر وبين خصمه الذي لم يصرح به في القصيدة، وذلك لأنه لم يكن واحداً، بل أكثر من واحد، فتارة مع الأعرج من بني حمّال بن يشكر، وتارة أخرى مع "حاضر بن سلمة الغبري"، وكل ذلك إنما كان في العهد الإسلامي؛ لأن الحبس كان بعد سنة ستين للهجرة.

ومن ثم يدل ما سبق على إسلامية القصيدة الثانية من العينية.

الثانية: أن سويداً يختم قصيدته بقوله:

هَل سُوَيدٌ غَيرُ لَيثٍ خادِرٍ

ثَئِدَت أَرضٌ عَليهِ فَانتَجَع

فالبيت في وصف مشية الأسد في المطر، والثأد: الندى والبلل ، وثئِدَ المكان: أصابه البَرَد، ويستفاد من هذا أن سويداً شبه نفسه بالأسد، وأن المكان الذي يقيم فيه لا يوافقه ولا يناسبه، من أجل ذلك جاء التعبير بـ [ثئدت].

والختام لا يحمل دلالة الشجاعة والقوة فقط، بل تتسع الدلالة لتشمل إيحاء آخر هو تجاوز المحن، وعدم الركون إلى الواقع المعيش، فإن حالة التجاوز للمحنة شبيهة بحالة انتقال الأسد من مكان أصابه المطر فاستحال طيناً إلى مكان آخر يصلح للإقامة.

---

(١) صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٣٠/١٦.

وهذا الوصف يناسب ما ورد في القصة بعد أن خذله قومه في الفداء، ومن ثم لا مقام له بينهم.

ولا أكون مبالغاً إن قلت: إن البيت الختامي قد يهدم الجزء الأول من العينية لو فرضنا أنها قصيدة واحدة، إذ مدحها في الجزء الأول من القصيدة، بل كانت القبيلة هي الموضوع الرئيس لهذا الجزء الذي يفخر فيه بقبيلته ويعدد مآثرها، فهل بعد ذلك يتحول عنها؟!

فضلاً عن ذلك أن الشاعر قد أضاف للتشبيه وصفاً حين قال: ليث خادر، وهو الأسد داخل الخدرة، مع أن الشجاعة والقوة تقتضي الظهور والخروج والزفير، فَلِمَ عَبّر بالخادر؟

والجواب من وجهين:

الوجه الأول: أن مكانة الأسد في الوحوش بمنزلة الملك بين رعيته، فمتى "كان مختفياً عن العيون كان أشد هيبة ووقعاً في النفوس، وكذلك لا تزال الملوك تحتجب عن الرعية ليعظموا في نفوسهم، ولو خالطوهم أو قربوا منهم لهانوا عليهم"(١)، فكان الوصف بالخادر من تمام المهابة.

الوجه الثاني: أن التزام الخدر يزيده توحشاً، فإذا خرج فلأمر جلل، وحينئذ أيقنت الحيوانات أن خروجه للصيد والقنص.

وهذا مما جعل ختام القصيدة مناسباً لما أراده الشاعر – أو تَقَوَّله ناقد – بين الختام وبلوغ النهاية في المهابة، أو أن الخدر – هنا – رمز للسجن الذي تحرر منه؛ لينطلق إلى أرض جديدة.

لذا كان الاحتمال الراجح أن القصيدة العينية قصيدتان، تختلف الثانية عن الأولى في ملابساتها، وموضوعها.

---

(١) السيوطي: جلال الدين ، كُنه المراد في بيان بانت سعاد، تحقيق: د. مصطفى عليان – مؤسسة الرسالة – ط أولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٣٨٢.

وأرى أن القصيدة الأولى إنما تحمل عصبية الجاهلية والافتخار بالقبيلة، بينما يدل البيت الختامي للعينية على شعار إسلامي قد يُعد دليلاً آخر على إسلاميتها في جزءها الثاني، هذا الشعار هو شعار الهجرة حين يضيق المكان بصاحبه، وتضيق أخلاق الرجال، وتتعدد أسباب الهجرة من أجل دين ، وعرض، ونفس، فإن أرض الله واسعة.

هـ- الطيف والخيال:

ورد ذكر الخيال في موضعين من العينية، الموضوع الأول خاص بـ"رابعة"، والثاني خاص بـ"سليمى"، "والمتأمل في تجربة هذه القصيدة من داخلها ينتهي من تأمله إلى القول بأن هذه التجربة مخضرمة"(١)

ومن ثَمَّ يستنبط من النص، ومن معنى الخضرمة أن للقصيدة قسمين: جاهلي، وإسلامي، فيرد الخيال في القسم الأول "الجاهلي" معقوداً ومرتبطاً بـ"رابعة" وذلك واضح في البيت الثامن من العينية، إذ يقول سويد:

هَيَّجَ الشَوقَ خَيالٌ زائِرٌ

مِن حَبيبٍ خَفرٍ فيهِ قَدَع

فالخيال – هنا – تابع للكلام عن رابعة "والذي أفاض الشاعر في سرد صفاتها، وهو حينذاك في زمن الوصل مع رابعة، ثم يجيء الخيال في القسم الثاني "الإسلامي" مقروناً بـ سليمى"، في البيت الخامس والأربعين حيث يقول:

أَرَّقَ العَينَ خَيالٌ لَم يَدَع

مِن سُلَيمى فَفُؤادي مُنتَزَع

فالخيال مبدوء به القسم الثاني، فهو مفتتح ومطلع أتبعه الشاعر بذكر الرحلة، ووصف الناقة التي يشبهها بالثور، ثم يفرد الحديث عن نفسه بعيداً عن القبيلة التي أفاض في ذكرها في القسم الأول، ثم أخذ في بيان سبب العزلة والدافع لها،

(١) د. حسين البنا عز الدين: دراسات في الشعر العربي القديم .. الطيف والخيال، دار الحضارة للنشر [د.ت] ، ص ١٧٤.

والحديث عن الخصم الحاسد، وانتصاره عليه. فالقسم الثاني قصيدة متكاملة البناء، تامة الأغراض من نسيب، ورحلة ووصف، وغرض رئيس "الفخر الذاتي".

و- أشكال الصراع:

يُعَدّ الصراع دليلاً على الحضارة – في العمل الفني – وأن القسم الثاني من العينية قائم بذاته، وقصيدة أخرى ، فالشاعر تحدث في هذا القسم عن الخصم والعدو الحاسد في ترتيب منطقي:

- وصف العدو
- المساجلة بينهما
- شيطان الشعر
- الانتصار على عدوه

فبدأ الشاعر بجملة من الصفات غير الحميدة التي تجلب العار لصاحبها، فذكر أن عدوه "حاسد – مغتاب – سيء الظن – عريق في البغضاء ورثها عن آبائه – منافق جبان يحييه في وجهه ثم يخوض فيه إذا ولَّى.

ثم انتقل الشاعر إلى باب المساجلة الكلامية والافتخار، فجاء بألفاظ دلت على المشاركة مثل "فتساقينا – وارتمينا – وتحارضنا"، وكانت نتيجة المساجلة أن أصاب خصمه العيُّ، وفي ذلك يقول سويد:

ثُمَّ وَلّى وَهوَ لا يَحمي اِستَهُ

طائِرُ الإِترافِ عَنهُ قَد وَقَع

وبما أن العرف قد جرى على أن لكل شاعر شيطاناً يوحي إليه فهنا صورتان أجاد الشاعر فيهما: الصورة الأولى : المناسبة.

الصورة الثانية: المقابلة.

فالمناسبة جاءت من خلال ذكر شيطان الشعر في معرض المساجلة الكلامية، ومن ثَمَّ يُعِد كلٌّ شاعر ما استطاع من أدوات الحرب الكلامية والتي منها الاستعانة بشيطان الشعر.

وأما المقابلة فكانت بين شيطانين وشاعرين، فشيطان الخصم فَرّ كما فَرَّ صاحبه، إذ هو لا يعطي ولا يمنع، خلافاً لشيطان "سويد" الذي جاء من دون استدعاء:

قالَ لَبَّيكَ وَما اِستَصرَختُهُ

حاقِراً لِلنّاسِ قَوّالَ القَذَع

فهو شديد الهجاء سيء القبح حين يقول.

والمقابلة بين الشاعرين تبرز المدح والفخر في مقابل الضعف والخور، فـ "سويد" انتصر على عدوه ومساعده شيطان الشعر، كما أن سويداً لم يستعن بصاحبه اعتماداً على قوته البلاغية، وثقته بالنفس، وحتى لا يُنسب هذا النصر لغيره.

وأخيراً: فإن هذا التسلسل المنطقي في صورة الصراع يعضد الرأي القائل: إن الجزء الثاني من العينية قصيدة أخرى قائمة بذاتها، قيلت في العهد الإسلامي بما حمله من سمات الحضارة، والرقي الفكري والمعرفي في طريقة العرض وسرد الحدث.

الخاتمة

حاولت الدراسة تقديم صورة تجمع آراء عبدالله الطيب في شرحه للقصيدة العينية، لا سيما رأيه المؤيد لكونها قصيدة واحدة، وفي المقابل سرد لأقوال النقاد في القصيدة بوصفها قصيدتين، كل هذا خلال قراءة تأويلية لنقد النقد.

وتبين خلال هذا الطرح ما يأتي:

- أن عبدالله الطيب مؤيد لكون العينية قصيدة واحدة، وأن معانيها مكتملة ومتماسكة، فضلاً عن كونها إسلامية، وأن ما ورد من أسماء للمحبوبة لا يخرج عن كونها لامرأة واحدة تناوبت بين الوصفية والاسمية، أو أنها خرجت إلى مجال الرمز فصارت رمزاً للقبيلة.
- جاءت آراء المعارضين لـ عبدالله الطيب محددة في نقاط التعدد، والزمن، التعدد من حيث إنها – أي العينية – قصيدتان، والزمن من حيث جاهليتها في أولها، وإسلاميتها في نصفها الآخر، من خلال حضور الألفاظ الإسلامية، والتأثر بالقرآن الكريم.
- استند الرأي القائل بأنها قصيدتان إلى جملة الوسائط الفنية، والتاريخية، والنقدية مثل: مطلع القصيدة، والمعجم الشعري، والخيال، والصراع، فضلاً عن اختلاف الرواية، ومحنة السجن.
- أن القول المؤيد للقصيدتين اعتمد – كذلك – تعدد أسماء المحبوبة، والحديث عن الخيال في موضعين مختلفين، ثم مجيء التصريع في البيت الخامس والأربعين، وافتخاره في أول العينية بالقبيلة، وفي الجزء الثاني افتخر بنفسه، وكل جزء منهما يتقدمه نسيب.
- أن تعددية الأسماء في القصيدة– فيما ذهب إليه عبدالله الطيب– مغاير لدلالة السياق؛ إذ جاء وصف المحبوبة وصفاً حسيًّا قد استغرق ستة أبيات بعد البيت الأول، كما أن الحديث عن القبيلة جاء صريحاً، فلا حاجة للتأويل والرمز.

●أن التصريع تكمن مهمته في أول القصيدة ابتداءً؛ ليفهم منه قبل تمام البيت قافيتها، وبذا يترجح أن التصريع في البيت الخامس والأربعين بداية لقصيدة أخرى.

●فخر الشاعر بقبيلته فجاء فخره بصفات اعتادها القوم، وتواضعوا عليها مثل الحديث عن الكرم، والشجاعة، ورجاحة العقل، فلما فخر بنفسه في الجزء الثاني من القصيدة جاء فخره إسلامياً من خلال رصد للقيم، والمفردة الشعرية، والتراكيب اللغوية، وهذا ما يعضد القول: إن القصيدة العينية قصيدتان.

●أن القسم الثاني من العينية قصيدة متكاملة البناء، تامة الأغراض من نسيب، ورحلة، ووصف، وغرض رئيس هو الفخر الذاتي في صورة درامية تتمثل في الصراع مع العدو الحاسد، مزاوجاً بين السردية والحوار.

فهرس المراجع

- ابن الأثير، ضياء الدين: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق: د. مصطفى جواد،و د. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٣٥٧هـ/٩٥٦م
- ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، ط دار الفكر
- ابن النديم: الفهرست، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م
- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي– دار الجيل– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ
- ابن دريد: الاشتقاق، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل ، بيروت، ط أولى ١٤١١هـ/١٩٩١م
- ابن طيفور: المنثور والمنظوم .. القصائد المفردات التي لا مثل لها، تحقيق: د. محسن غيَّاض، تراث عويدات – بيروت باريس، طبعة أولى ١٩٧٧م
- ابن عصفور: أبو الحسن علي بن مؤمن: ضرائر الشعر ، تحقيق: السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط أولى ١٩٨٠م
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط دار المعارف
- أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر – الفجالة – القاهرة
- أبو الطيب الوشاء: محمد بن إسحاق، الموشَّى أو الظرف والظرفاء، تحقيق: كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي – مصر، الطبعة الثانية ١٩٥٣م
- أبو زرعة، ولي الدين أحمد: تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل، تحقيق: عبدالله نوارة، مكتبة الرشد الرياض [د.ت]
- أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط أولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م
- الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: د. إحسان عباس، وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، دار صادر – بيروت ، ط ثالثة ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م
- البهبيتي، نجيب محمد: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري – الطبعة المغربية – الرباط ١٩٨١م/١٤٠١هـ
- التبريزي: شرح اختيارات المفضل، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط ثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

- الجمحي، محمد بن سلام:طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني – القاهرة
- الحاتمي، أبو علي محمد بن الحسن: حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق: د. جعفر الكتاني، وزارة الثقافة والإعلام – العراق – دار الرشيد للنشر ١٩٧٩م
- حسن البنا عز الدين: دراسات في الشعر العربي القديم .. الطيف والخيال، دار الحضارة للنشر [د.ت]
- الحميري: محمد بن عبدالمنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق/ إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت – طبع على مطابع دار السراج– الطبعة الثانية – ١٩٨٠ م
- الخالديان: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٦٥م.
- ديوان المفضليات شرح ابن الأنباري، عناية: كارلوس يعقوب لايل، مطبعة الآباء اليسوعيين – بيروت ١٩٢٠م
- ديوان امرئ القيس، شرح حسن السندوبي، دار إحياء العلوم – بيروت – ط أولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م
- ديوان سويد بن أبي كاهل: شاكر العاشور ، دار الطباعة الحديثة– بصرة – عراق، ط أولى ١٩٧٢ م
- الذهبي،شمس الدين محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام– المكتبة التوفيقية[د.ت]
- الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، مايو ٢٠٠٢م
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر:

– شرح شواهد المغني، علق حواشيه أحمد ظافر كوجان، تعليقات الشيخ محمد محمود ابن التلاميد الشنقيطي، لجنة التراث العربي، ط ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م

– كُنه المراد في بيان بانت سعاد، تحقيق: د. مصطفى عليان –مؤسسة الرسالة– ط أولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

- شوقي ضيف:

– تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، دار المعارف، الطبعة السابعة [د.ت]

– العصر الإسلامي، دار المعارف – الطبعة السابعة

- الصفدي، صلاح الدين: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م

- طه حسين، حديث الأربعاء، طبعة دار المعارف – الطبعة الرابعة عشرة
- عبدالله الطيب: شرح قصيدة سويد بن أبي كاهل "بسطت رابعة الحبل لنا"، [د، ن، ت]
- علي بن أبي الفرج البصري: الحماسة البصرية ، تحقيق: عادل سليمان جمال، لجنة إحياء التراث الإسلامي – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل – بيروت لبنان – ط خامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م
- فتحي عبدالمحسن حمدان: قراءة في عينية سويد بن أبي كاهل، مجلة كلية التربية – جامعة عين شمس، مج١٦، عدد ٣ ، سنة ٢٠١٠م
- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبدالمنعم خفاجي، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان [د.ت]
- المبرد: نسب عدنان وقحطان، تحقيق: عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – الهند، ١٣٥٤هـ – ١٩٣٦م
- محمد حسن عثمان: المرشد الوافي في العروض والقوافي ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ٢٠٠٤م/١٤٢٥هـ
- محمد علي أبو حمدة: في التذوق الجمالي لقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري .. دراسة نقدية إبداعية، دار عمار للنشر – عَمَّان – الأردن – ١٩٩٥م
- المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام محمد هارون، ط دار المعارف – الطبعة السادسة
- موسى بن مصطفى العبيدان: شاعر وقصيدة، مجلة أفنان، النادي الأدبي بتبوك–عدد ٨،١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م
- ياقوت الرومي، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي: معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١-	الملخص	١٧٢٠
٢-	Abstract	١٧٢١
٣-	مقدمة	١٧٢٢
٤-	مدخل .. شاعر وقصيدة	١٧٢٥
٥-	أولا: سويد بن أبي كاهل	١٧٢٥
٦-	ثانياً: قصيدة سويد "العينية"	١٧٢٨
٧-	المبحث الأول : العينية بين المؤيدين والمعارضين	١٧٣١
٨-	المبحث الثاني : بناء القصيدة دلالات وتأويلات	١٧٣٨
٩-	الخاتمة	١٧٥٩
١٠-	فهرس المراجع	١٧٦١
١١-	فهرس الموضوعات	١٧٦٤